الإجازة ...

قصة بقلم عبدالله خيرت

ظهر الاعلان الكبير فجأة على جانب الطريق الزراعي .. كان منتصبا فوق ثلاث قوائم طويلة مغروسة في الارض الخضراء .. ولانه كان وحده في هذه المنطقة فقد بدا واضحا مثيرا ... وحين اقتربت منه سيارة الاوتوبيس ابتسم له صابر في ود كأنه يرحب بصديق ساقته الصدفة السعيدة .. انه هو نفس الاعلان الذي يعرفه جيدا .. الفتاة اللطيفة تضحك بسعادة وهي تمسك بيديها كرة مخططة كبيرة كأنها ستقذف بها كل من ينظر اليها .. والكلمات نفسها .. الكلمات التي لا زالت تضيء في خياله وتملأ احلامه ويعيش في جوها « استمتعوا بالهدوء الساحر في رأس البر ... » وامام الاعلان تماما هدأت السيارة من سرعتها وانحرفت الى الطريق الضيق ثم انطلقت من جديد تسبق الاشجار والبيوت والناس وتترك الهواء يصفع بقوة وجوه الركاب وملابسهم ...

وفكر صابر وهو في مقعده المريح بالصف الامامي يلتهم بنظره كل شيء ويتمنى لو ان له الف عين في كل اتجاه حتى يعي هذا السحر الذي لا ينفد .. فكر في هذه الرحلة التي لم تكن تخطر بباله ابدا .. لقد كان يحلم احيانا وهو يحترق في شوارع القاهرة بزيارة بور سعيد او الاسكندرية ، اما رأس البر هذه فقد كانت بعيدة عن ذهنه تماما .. انه هذا الاعلان وحده .. نعم هذا الاعلان هو الذي اشار عليه بتلك الرحلة ..

فمنذ خمسة ايام كان في بوستة العتبة ليرسل المبلغ الصغير الى اهله كما تعود ان يفعل في اول كل شهر .. وكان قادما لتوه من الجمعية التعاونية بالسيدة زينب حيث يعمل ولا زال في ذهنه صراخ الاطفال والخادمات والنساء وكل قسوة جمهور الجمعية التعاونية وظلمه واستغلاله السيىء للافتة الزجاجية الموضوعة امام الباب الرئيسي «نحن في خدمتكم » .. وكان صابر في هذه اللحظة ناقما على الجمهور والحر والزحام وعلى اليوم الذي اختار فيه مدرسة التجارة .. وظل واقفا في الصف الطويل متململا ضجرا اكثر من ساعة نصفها في الشمس .. ومثل كل مرة حاول بعض الواقفين ان يتقدم دوره واحتج صابر وغضب ولكنه سكت حتى يقول غيره ما يريده هو تماما « الله .. يعني احنا اللي فاضين ؟ ما فيش نظام ابدا ؟ » .. وحين وضع الايصال في جيبه احس بارتعاشة فرح صغيرة وتمنى لو انه يملك نقودا اكثر ليرسلها اليهم وود لو يراهم جميعا الان ويجلس معهم مدة طويلة يتحدث ويلعب مع اخواته الصغار .. ولكنها لم تكن الا لحظة قصيرة فقط ثم تذكر الرسالة التي ستصله منهم بعد ايام فارتسمت على وجهه تكشيرة قاسية واحس ان الجو شديد الحرارة وانه سيختنق من الزحام وعاد الصداع الذي لم يعد يجدي معه شاي او اسبرين يحطم رأسه من جديد .. وصعد الى غرفته بالدور الخامس فوق السطح وهو يقرأ الكلمات التي تتكرر في كل رسالة « اهتم بنفسك .. لماذا ترسل لنا نقودا .. نحن بخير وحالتنا طيبة جدا جدا !؟ هه .. جدا جدا .. كله كذب وكلام فارغ اصبح يؤلمه ويثير اعصابه .. لقد كانت تجتاحه في كل مرة رغبة عنيفة في ان يمزق هذه الرسالة او يحرقها قبل قراءتها ولكنه لم يفعل ذلك ابدا .. كان يمسكها باصابع مرتعشة ويعلقها في الضوء امام عينيه ثم يفتحها بحذر ويظل يلتهم سطورها بقلق بالغ مرات كثيرة ... وفتح باب الغرفة فخيل اليه ان حرارة النهار قد انحطت فيها فجذب الكرسي وجلس امامها مرتفقا سور السطح .. كانت الشمس قد بدأت تغيب وميدان التحرير - كما يحس بأذنيه وعينيه - يملأه صخب كل يوم ويبدو كما لو ان فيه معركة لا تنتهي بين كل شيء .. وفكر صابر بلا حماس انه سوف يشتري غدا بنطلونا من النقود التي توفرت معه خلال الاشهر الماضية وربما يشتري قميصا ايضا .. وفجأة اشرق حوله نور اخضر خافت ورفع رأسه فالتقت عيناه بالاعلان الذي بدأت كلماته تنطفىء بعد ان قرأ « استمتعوا بالهدوء الـ .. » وزحفت في الشارع سيارة كبيرة فارتجف باب الغرفة خلفه وارتجف الكرسي الذي يجلس فوقه واضيئت الكلمات من جديد « استمتعوا بالهدوء الساحر في رأس البر » .. لم يكن قد رأى هذا الاعلان من قبل .. رأس البر ؟؟ قفزت الى ذهنه الجمل التي قرأها وهو صغير في كتاب الجغرافيا والتي كان يتذكر بين وقت واخر بدون اي سبب « مصيف رأس البر قريب يقصده الناس لجمال موقعه بين البحر الابيض والنيل » ..

ومع تقدم الليل وارتفاع الضوضاء ووضوح نور الاعلان كان صابر قد بدأ يقنع نفسه بانه ليس في حاجة الى البنطلون الان وانه يجب ان يذهب الى رأس البر هذه ولو ليوم واحد فقط .. يوم واحد ينفلت فيه من الحر والضجة وكل الاشياء التي تضنيه وينسى هذا التكرار المؤلم الذي غدا يطبع ايامه .. كان دائما يقوم من نومه متأخرا ويقطع المسافة الى محطة الاتوبيس وهو يلهث ، وفي المحطة كان غالبا ما يجد اتوبيسا يتحرك بسرعة كأنه يهرب منه ويحس لسبب لا يدريه ان هذا هو الاتوبيس الذي كان سيركبه وانه لو تقدم لحظة واحدة للحق به .. وتحت تأثير هذا الاحساس يميل على احد الواقفين معه ويسأله بخوف سؤالا يعرف قبل ان ينطق به انه سخيف ولا معنى له « الاتوبيس ده نمره كام ؟ » وكم تكون دهشته قاسية حين يؤكد له الرجل ظنونه .. وفي الجمعية التعاونية يظل طول النهار يأخذ نقودا ويعطي بونات ويسمع صراخا ويتقبل اهانات احيانا ويتصرف هو وزملاؤه والعمال وكل موظفي الجمعية في حدود اللافتة الزجاجية المتأرجحة « نحن في خدمتكم ».. وبعد الظهر تدفعه العادة وحدها لا الرغبة فيجد نفسه واقفا مع الواقفين امام دكان الحاج راشد بائع السمك المقلي ويقرأ الكلمات نفسها « من غش امتي فليس مني » و « سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا » .. ويهمس بصوت متعب « ربع مكرونة » .. ويكتشف في كل مرة وهو يأكل ان هناك سمكة فاسدة او اكثر ولكنه لا يتعلم ابدا ولا يتوب .. والصداع ؟؟ لا .. لا .. لا بد ان يذهب الى رأس البر ..

وامس فقط سمحوا له باجازة لمدة اسبوع سوف يقضيه كله في رأس البر ..

وكان صابر الان يراقب بدهشة اشجار النخيل العالية التي تملأ هذه المنطقة حين تحرك الرجل الذي يجلس بجواره ونفض الغبار عن ملابسه ثم قال بصوت مرتفع « خلاص .. وصلنا » .. وانتبه صابر وتيقظت كل حواسه ومد بصره الى الامام وقلبه يدق .. هاهي «العشش» التي حدثه عنها زميله في القاهرة .. العشش التي تميز رأس البر .. انها تبدو كما لو كانت كثبانا صغيرة منتظمة من هذا الرمل الناعم ..

وارتفعت الضجة في الاتوبيس واخذ الناس ينزلون حقائبهم ويمسكون بيد اطفالهم ..

ونزل صابر والشمس توشك ان تغيب .. جلس في القهوة لحظة ثم ترك حقيبته بها ومضى .. كان حريصا على الا تفوته هنا لحظة واحدة .. سوف يشهد اولا سحر الغروب عند « اللسان » ثم يمشي في شارع النيل متمهلا سعيدا خالي البال فيحس انه في الجنة كما حدثه زميله ..

ولكنه بعد خطوات قليلة وجد نفسه امام لافتة ضخمة تطوق احدى العشش « لوكاندة السعادة » .. وكان يريد ان يؤجل هذه المسألة الان غير انه اخذ يصعد الدرجات القليلة وفي نيته ان ياخذ فكرة عن الاسعار على الاقل وربما يجد هنا مكانا فلا يثقل رأسه بأي تفكير بعد ذلك .. وكان كاتب اللوكاندة مشغولا فلم ير الدهشة التي ملأت وجه صابر وهو يقرأ « غرفة بسرير واحد ٧٠ قرشا .. غرفة بسريرين ١٢٠ قرشا .. غرفة بثلاث ... » ورفع الرجل رأسه فحاول صابر ان يبدو هادئا وسأل في صوت خافت متردد :

ـ فيه اماكن ؟

ـ لا ..

واقنعته هذه الاجابة المقتضبة فنزل مسرعا .. ان الاسعار هنا مرتفعة بشكل مثير رغم ان اللوكاندة عادية فيما يبدو .. وحين قرأ كلمة لوكاندة بحث عن بابها حتى وجده ..

ـ فيه اماكن ؟

ـ لا والله ... حضرتك عارف ..

ـ عارف ؟

ـ اغسطس .. كل سنة وانت طيب ..

ولم تكن الاسعار في هذه المرة هي التي ادهشته وان كانت مرتفعة وانما اخذ يسأل نفسه بقلق وهو يهبط ما علاقة شهر اغسطس بسرير صغير في عشة كهذه ؟ يبدو ان النوم هنا مشكلة يجب ان يحلها الان حتى لا يتعب فيما بعد .. وكانت الشمس تختفي هناك في اخر البحر وهو هنا يمشي في الشوارع الرملية الصغيرة ويصعد وينزل ويقابل بابتسامات معتذرة وبكلمة « لا » مذيلة بجمل اخرى لم يكن يهمه ان يسمعها واحيانا كان يقابل بهزة صغيرة فقط من الرأس كان يعرفها قبل ان يصعد السلم .. وكان عليه ان يميز الشوارع لان اكثرها لم تكن له اسماء وانما ارقام حتى لا يظل اكثر من ساعة كما فعل الان يتوه في ثلاثة شوارع متشابهة يقوده احدها الى الاخر دون ان يدري .. وهو الان يعرف ان لوكاندات هذا الشارع كلها مشغولة لانه قرأ من قبل هذا الاعلان « جبنة البسيوني تتحدى ... » ويعرف ان الشارع المجاور له يقع في اوله مبنى البلدية الكبير ويعرف ان الشارع الذي بعده يقوم في وسطه مسجد الحقت به مساحة جديدة غير مسقوفة .. ولانه لم يعد يهتم بقراءة اسم اللوكاندة كاملا ولان العشش كلها متشابهة فقد كان يكتشف ايضا انه صعد هذا المكان من قبل .. كان يعرف ذلك حين تحدق فيه نفس الصورة التي رآها ووعته ذاكرته او يجد السيدة التي تستلقي على مقعد مريح واضعة ساقا ثقيلة فوق اخرى لا زالت كما تركها من قبل تقلب صفحات مجلتها بتثاؤب .. وحينئذ كان ينصرف محاولا الا يحس به احد وهو يتهم نفسه بالغفلة والجهل .. وظل دائما يتساءل اين ذهب زملاء الاتوبيس .. هل هم مثله الان وهل يجرجرون اولادهم وزوجاتهم بحثا عن مكان ينامون فيه ..

ونصحه احد المارة الذين لاحظ هو انهم يختلفون عنه اختلافا كبيرا في المشي والنظر والكلام نصحه ان يذهب الى شارع النيل فربما .. وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة حين وجد نفسه في شارع النيل فوقف مبهوتا قلقا .. خيل اليه انه يدفع الناس ويدفعونه في شارع السد في الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب .. شارع النيل .. ان الاعلانات هنا تومض وتنطفىء بشكل مفاجىء مزعج والناس في صخبهم وزحامهم لا يعطونه اي فرصة ليرفع رأسه ويقرأ اسماء اللوكاندات .. وها هو منذ وقف يحاول عبثا ان يعرف هل « الفردوس » الذي جاءت وقفته امامه كازينو او لوكاندة او محل لبيع الاحذية .. كم يحس بالتعب والارهاق .. لو انه يجلس قليلا ليفكر .. ولكن ليس هنا من المستحيل ان يجد في هذا المكان مقعدا خاليا .. ورجع الى القهوة ليستريح وهناك تحدث بانفعال الى الناس الذين لا يعرفهم واراد ان يخلق من مسألة المبيت مشكلة كبيرة .. ولكن الجالسين هناك قابلوا كلامه بفتور واضح واشار عليه اكثر من واحد ان يقصد الفنادق الكبيرة على البحر قد تكون اسعارها مرتفعة قليلا ولكنه حتما سيجد هناك مكانا ..

وقال لنفسه وهو يحمل حقيبته ويمضي اسعارها مرتفعة .. اكثر من هذا ؟ لا بد اذن ان تكون جنيها .. غير انه سوف يذهب .. والا فماذا يصنع .. انه لن ينام في الشارع على اية حال ..

وكان الوقت يجري وصابر يمشي بخطوات بطيئة متحيرة وفيما عدا هذه الزمجرة الغاضبة التي كان البحر يطلقها من وقت لاخر كان السكون يلف كل شيء والشوارع والعشش قرب البحر هادئة نائمة خافتة الضوء .. وفكر صابر واقدامه تغوص في الرمل الناعم وحقيبته تنتقل من يد الى اخرى .. فكر ان هذه العشش ليست حجراتها كلها مشغولة وان الناس لا يتكدسون فيها كما هو الحال في بيوت القاهرة .. وحجرات الجلوس في هذه العشش خالية الان تماما .. مئات من حجرات الجلوس ليس بها سوى المقاعد والسجاجيد وربما صورة او لوحة تمثل غروب الشمس على شاطىء بحيرة .. ويبدو ان تفكيره قد اضطرب بعض الشيء فقد تخيل انه سيكون سعيدا غاية السعادة لو وجد نفسه هذه الليلة مقعدا صغيرا في احدى حجرات الجلوس هذه ثم تمنى ان يكون احد هذه المقاعد بقية عمره يقبع في ركن بجوار الباب هادئا صامتا

مؤلفات سارتر

* **دروب الحرية**

رائعة سارتر باجزائها الثلاثة

١ ـ سن الرشد ٥٥٠ ق.ل

٢ ـ وقف التنفيذ ٦٥٠ ق.ل

٣ ـ الحزن العميق ٥٥٠ ق.ل

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* **الغثيان**

اعمق روايات سارتر ٣٥٠ ق.ل

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* **محاورات في السياسة**

بالاشتراك مع روسيه وروزنتال

ترجمة جورج طرابيشي ٢٠٠

* **عاصفة على السكر (ط ٢)**

ترجمة عايدة مطرجي ادريس ٢٠٠

* **عارنا في الجزائر**

ترجمة عايدة وسهيل ادريس ١٠٠

لا يتكلم ولا يكتب رسائل لاحد ولا يركب اتوبيسات مزدحمة .. ثم انتبه فجأة واخذ يلوم نفسه على هذه الافكار السخيفة .. ولكن الى ايـــن يتجه الان ؟ هل سيذهب حقا الى الفنادق التي على البحر .. ان ايجار غرفته في القاهرة جنيهان في الشهر .. فكيف ينام هنا ليلة واحـــدة بجنيه ؟ وكم من الوقت سيمضي قبل ان ينسى او يغفر لنفسه انه نـام ذات ليلة ست ساعات بجنيه .. واذا وجدهـــا اكثر من جنيه فهـــل سيقبل ايضا ام يترك نظرات كاتب الفندق الكبير وربما احد الفراشين وسيدة لم تستطع النوم يترك نظراتهم تخترق ظهره وهو ينزل ويعطيهم الفرصة ليتحدثوا عنه باشفاق مصطنع ثم يتساءلون في دهشة واستنكار متى يدرك الناس ان هناك فرقا في كل شيء بين المصايف وغيرهـــا مـــن المدن .. ولماذا يأتي الانسان من بلده اذا لم يكن قد فكر في هـــــذه الاشياء من قبل واستعد لها ..

وفي اللحظة الاخيرة حين قرر وهو ساخط علـــى نفسه قبل كـــل شيء انه لن يذهب الى الفنادق التي على البحر وفي نفس الوقت بـــدأ يشعر كأنه مطارد وان تسكعه في الشوارع بعد الساعة الواحدة اصبـــح شيئا مخيفا خطرا .. في هذه اللحظة جاءته فكرة فأخذ طريقه بخطوات سريعة الى الشارع الذي به المسجد وهناك احس ببعض الخجل وهـــو يتلفت حوله عدة مرات ثم اعتلى السور المنخفض وغدا داخل هـــــذه المساحة الجديدة التي الحقت بالمسجد .. وحين خلع حذاءه خيل اليه ان اقدامه متورمة بشكل واضح وانه من المستحيل ان تدخل بعد ذلـــك هذا الحذاء الضيق .. ولماذا كان دائما يختار الاحذية الضيقة ؟ ان رأسه يدور وهو يريد ان ينام .. ولكن اين يضع نقوده ؟ فكر اولا ان يضعهـــا في الحقيبة ما دامت ستكون تحت رأسه وفتحها لاول مرة واخذ ينظـــر بدهشة الى الاشياء التي حشرها فيها كانت هناك بيجامة مكوية وقميصان وزوجان من الملابس الداخلية وفرشاة ملابس وماكينة حلاقة واشيـــاء غريبة لا يعرف متى رتبها ووضعها هكذا وكان هناك ايضا كتاب .. لماذا ؟؟ واغلق الحقيبة بغيظ .. ستظل النقود في جيبه وليحدث ما يحدث ..

وقبل الفجر ايقظه مؤذن المسجد .. وحاول صابر ان يتجاهـــل هذا الصوت الخشن ولكن الرجل اقترب منه وهزه بشدة وهو يقـــول « وحد الله ... » .. وحينئذ قام مفزوعا .. كان صوت الرجل امتدادا لزمجرة البحر التي اخافته وانقبض منها قلبه طوال الفترة التي ظـــل ينقلب فيها على الحصيرة .. وغسل وجهه ويديه ورجليه ووقف فـــي الصف الصغير صامتا لم ينطق بكلمة واحدة ..

ولم يكن يفكر في شيء محدد حين اخذ حقيبته والنهار يشرق ونزل الى الشارع ولكنه سمع من قرب سائق تاكسي ينادي « واحد مصر .. نفر واحد .. واحد ناقص .. » واحس صابر ان هـــذا الرجل يناديه فأسرع وهو يقول « انا » .. ولم يدر لماذا ضحك بعض الجالسين فـــي التاكسي حين قال ذلك .. كانت المقاعد الامامية مشغولة وكان احـــد الركاب يشير بيده وهو يقول « شايف يابني .. النخـــل هناك عنـــد الشمس .. يا سلام ما فيش معانا شاعر يا ناس .. » ومد صابـــر عينيه الى الامام .. كانت اشجار النخيل تلوح من بعيد وكأنها تتعانق وتلتف وتتهامس .. ولكن صابر يعرف الان فقط ان هذا وهم وخداع وانها مـــن بعيد تبدو هكذا اما حين يقترب منها فستظهر كل شجرة علـــى حقيقتها بعيدة عن الاخرى بعدا كبيرا مجرد عمود طويل من الخشب يقف وحده ..

وتحرك التاكسي فزحف بجواره اعلان كبير اكبر من كل الاعلانات التي رآها صابر من قبل هنا وفي القاهرة « لا تنسوا زيارة ... » وكان يريد ان يقرأ بقية الاعلان ولكن التاكسي كان اسرع من عينيه المتثائبتين .. وقد ظل رأسه يميل الى الامام ويميل حتى انغرز ذقنـــه فـــي اسفل رقبته واستغرق في النوم .

القاهـــرة

عبد الله خيرت

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعـــة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ الســـام

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهـــير

البرتو مورافيـــا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمـــن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للماساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليـــل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشـــا لبنـــانيا

منشورات دار الاداب ـ بـــيروت